

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} [الكهف: ٢٨].

قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) .
(اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) يأمر الله تعالى نبيه أن يجلس نفسه مع المؤمنين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له ، لا يريدون بدعائهم إلا رضا ربهم .
وقد نزلت هذه الآية في فقراء المهاجرين كعمار وصهيب وبلال وابن مسعود ونحوهم ، لما أراد صناديد الكفار من النبي ﷺ أن يطردهم عنه ، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين .
وقد أمر الله نبيه بعدم طردهم :

كما قال تعالى في سورة الأنعام (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) .
(الغداة) أول النهار (العشي) آخره .

والمراد بالغداة والعشي: المراد بذلك الصلوات الخمس ، وقيل: بالغداة صلاة الصبح ، وبالعشي صلاة العصر ، وقيل: الآية أعم من الصلاة ، وهذا الصحيح ، لأنهم يدعون الله ويعبدونه بأنواع العبادات من صلاة وغيرها ، أول النهار وآخره .
- وفي تخصيص الغداة والعشي عدة أوجه:

قيل: أن العرب إذا أرادت الدوام أطلقت الليل والنهار ، والغداة والعشي ، يعنون أنهم دائمون على ذلك .
وقيل: أن أول النهار وآخره من أفضل الأوقات التي تنتهز فيها فرصة العبادات .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي لا تتجاوز عينك إلى غيرهم من الأغنياء وما لديهم من زينة الحياة الدنيا .
كما قال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) .

- وقوله تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، فدعاء المسألة ، أن يقول: يا ربنا اغفر لي وارحمني ، ودعاء العبادة ، أن يقوم ويصلي ويصوم ويحج ، ووجه كون العابد داعياً ، لأنه بعبادته يريد بذلك ثواب الله والخوف من عقابه ، فهو دعاء بلسان الحال .

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) الباء هنا بمعنى (في) وتأتي الباء بمعنى (في) كقوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .
- وهذا الطلب وهو طرد ضعفاء المسلمين ، طلبه قوم نوح من نوح فأبى كقوله تعالى عنه (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) وقوله (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) ، وهذا من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) .

- وقواه تعالى (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم ، فهم مخلصون فيما هم من العبادات والطاعات ، لا يريدون رياء ولا سمعة ، ولا غرضاً من أغراض الدنيا .

٢٥٢ - وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

«العتل»: الغليظ الجافي . «والجواط»: بفتح الجيم وتشديد الواو وبالطاء المعجمة: وهو الجنوح المتوغل، وقيل: الضخم المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين.

(ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ) قال النووي : قوله (مُتَضَعِّفٍ) يَفْتَحُ الْعَيْنَ وَكَسْرُهَا الْمَشْهُورُ الْفَتْحُ ، وَلَمْ يَذْكَرِ الْأَكْثَرُونَ غَيْرَهُ ، وَمَعْنَاهُ : يَسْتَضَعِفُهُ النَّاسُ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَيْهِ لِضَعْفِ حَالِهِ فِي الدُّنْيَا ، يُقَالُ : تَضَعَّفَهُ وَاسْتَضَعَّفَهُ ، وَأَمَّا رِوَايَةُ الْكَسْرِ فَمَعْنَاهَا :

مُتَوَاضِعٌ مُتَدَلِّلٌ خَامِلٌ وَاضِعٌ مِنْ نَفْسِهِ ، قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ يَكُونُ الضَّعْفُ هُنَا : رِقَّةَ الْقُلُوبِ وَلِينَهَا وَإِخْبَانَهَا لِلْإِيمَانِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ
أَغْلَبَ أَهْلِ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ ، كَمَا أَنَّ مُعْظَمَ أَهْلِ النَّارِ الْقِسْمِ الْآخِرِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْإِسْتِيعَابَ فِي الطَّرْفَيْنِ . (نووي) .
١- الحديث دليل على أن من صفات أهل الجنة الإنسان الضعيف في نفسه الضعيف عند الناس ، وهذا دليل على فضل
الضعف والحمول .

ليس له قيمة عند الناس لفقره وضعفه ، لكنه عند الله له قيمة عظيمة لتقواه وإيمانه .
فالفقراء والمساكين هم أكثر أهل الجنة .

كمت في الحديث الآتي (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء) .

وفي حديث أسامة قال ﷺ (فمئت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين) .

وكما في الحديث الآتي (احتججت الجنة والنار ، فقالت النار : في الجبارون والمتكبرون ، وقالت الجنة : في ضعفاء الناس ومساكينهم) .
وفي المسند (افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يا رب ، يدخني الجبارة والمتكبرون والملوك ، والأشراف ، وقالت الجنة : يا
رب يدخني الضعفاء والفقراء والمساكين) .

وضعفاء الناس هم أكثر أتباع الرسل .

كما أخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام أن قومه عيروه باتباع الضعفاء له فقالوا: (أنؤمن لك وأتبعك الأزدلون) .

كما جاء في قول هرقل لما سأل أبا سفيان عن أتباع النبي ﷺ فقال : ضعفاء الناس ، فقال هرقل : وهم أتباع الرسل .
والفقراء أول من يدخل الجنة .

كما في الحديث الآتي (إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً) .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بملازمة الفقراء، والضعفاء، والملث معهم .

عَنْ سَعْدِ قَالَ (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرُونَ عَلَيْنَا . قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ
وَرَجُلٌ مِنْ هَذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) رواه مسلم .

وأخبر النبي ﷺ أن الرزق والنصر يكون بسبب الضعفاء .

قال ﷺ (أبعوني ضعفاءكم ، فإنكم إنما تزرعون ، وتُنصرون بضعفاءكم) رواه أحمد .

وبين النبي ﷺ أن الساعي على الأرملة، والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالصائم القائم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال (الساعي على الأرملة، والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال: وكالصائم لا يفتر،
وكالصائم لا يفطر) متفق عليه .

وبين النبي ﷺ أن شر الطعام طعام الوليمة التي لا يدعى إليها الفقراء .

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال (بسس الطعام طعام الوليمة، يدعى إليه الأغنياء، ويترك المساكين) رواه مسلم .

ودعاء النبي ﷺ ربه أن يرزقه حب المساكين .

فقال ﷺ (اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمي، وإذا أردت فتنة في قوم
فتوفني غير مفتون) رواه الترمذي .

قال أبو ذر : أوصاني خليلي عليه الصلاة والسلام بسبع :

أمربي بحب المساكين والدنو منهم .

قال ابن رجب : والمقصودُ أنَّ حبَّ المساكين أصلُ الحبِّ في الله تعالى؛ لأنَّ المساكينَ ليسَ عندهم من الدنيا ما يوجبُ محبتهم لأجله فلا يحبونَ إلاَّ الله عز وجل والحبُّ في الله من أوثقِ عُرى الإيمان، ومن علاماتِ ذوقِ حلاوةِ الإيمان، وهو صريحُ الإيمان، وهو أفضلُ الإيمان، وهذا كله مروى عن النبي ﷺ أنه وصفَ به الحبَّ في الله تعالى.

وروي عن ابن عباسٍ أنه قال : به تنال ولايةُ الله وبه يوجدُ طعمُ الإيمان .

وحبُّ المساكين قد أوصى به النبي ﷺ غيرَ واحدٍ من أصحابه،

قال أبو ذر : أوصاني رسولُ الله ﷺ أن أحبَّ المساكينَ وأن أدنوَّ منهم ، خرَّجه الإمامُ أحمد.

وخرَّج الترمذي عن عائشةَ أنَّ النبي ﷺ قالَ لها : يا عائشةُ أحيي المساكينَ وقريبيهم فإنَّ الله يقرئك يومَ القيامة .

ويروى أن داودَ التيميَّ كانَ يجالسُ المساكينَ ويقولُ: يا ربِّ مسكين بين مساكين.

ولم يزل السلفُ الصالحُ يوصونَ بحب المساكين - كتبَ سفيانُ الثوريُّ إلى بعضِ إخوانه - عليك بالفقراءِ والمساكينِ والدنوَّ منهم فإنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يسألُ ربه حبَّ المساكين .

وقال سليمانُ التيمي : كنَّا إذا طلبنا عليَّة أصحابنا وجدناهم عندَ الفقراءِ والمساكينِ.

وقال الفضيلُ: من أراد عزَّ الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين.

وحبُّ المساكينِ مستلزمٌ لإخلاصِ العملِ لله تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ الذي لا تثبتُ الأعمالُ إلاَّ عليه .

فإنَّ حبَّ المساكين يقتضي إسداءَ النفعِ إليهم بما يمكنُ من منافعِ الدينِ والدنيا، فإذا حصلَ إسداءُ النفعِ إليهم حبًّا لهم، والإحسانُ إليهم كان هذا العملُ خالصًا وقد دلَّ القرآنُ على ذلك، قالَ اللهُ تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) .

وقال عز وجل (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

-ثم قال ابن رجب رحمه الله : اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة :

منها : أنها توجب إخلاص العمل لله .

لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا الله تعالى ، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.

ومنها : أنها تزيل الكبر .

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين ، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب .

ومنها : أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه .

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال له : إن أحببت أن يلين قلبك فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد .

ومنها : أن مجالسة المساكين توجب رضی من مجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله ، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه .

وقد نهي الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ خَيْرًا وَأَبْقَى) .

وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

ومنها : أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين .

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم). وكان عون بن عبد الله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً وطعاماً ومسكناً، فتركهم وجالس المساكين فاستراح.

وفي الحديث (اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... وحب المساكين).

ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول: مسكين بين مساكين.

٢- أهل الجنة:

أولاً: ما جاء في حديث الباب.

(ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لو أفسَمَ على الله لأبْرَهُ).

وجاء في حديث قال ﷺ (أهل الجنة الضعفاء المغلوبون).

ثانياً: كل قريب لين سهل.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَخْرُجُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ: عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ) رواه الترمذي.

وفي لفظ (حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلِّ هَيِّنٍ لَيْنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ) وهذا لفظ أحمد.

قال القاري: (قريب) أي: من الناس بمجالستهم في محافل الطاعة، وملاطفتهم قدر الطاعة (سهل) أي: في قضاء حوائجهم، أو معناه: أنه سمح القضاء، سمح الاقتضاء، سمح البيع، سمح الشراء.

ثالثاً: السلطان المقسط، والعفيف المتعفف.

قال ﷺ (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدِّقٌ مُؤَقَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ) رواه مسلم.

٢٥٣ - وعن أبي عباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ (قال: مرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٌ: «مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟»، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَآءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مَلِءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(مرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ) قال ابن حجر: وَأَمَّا الْمَأْرُ فَلَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمِهِ وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى لِابْنِ حِبَّانَ سَأَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ هَلْ تَعْرِفُ فَلَانًا قُلْتُ نَعَمْ الْحَدِيثُ وَوَقَعَ فِي الْمَعَاذِيِّ لِابْنِ إِسْحَاقَ مَا قَدْ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّهُ عَيْبَةُ بْنُ حِصْنِ الْقُرَازِيِّ أَوْ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ كَمَا سَأَدْتُكَ (هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ) هُوَ بفتح الحاء وكسر الراء وتشديد الباء: أي حقيق.

(إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ) بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ تَالِيهِ أَيُّ بُحَابٍ خَطَبْتُهُ.

(وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ) بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ أَيُّ تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ وَزَادَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْرَةَ فِي رِوَايَتِهِ (وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ) وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حِبَّانَ (إِذَا سَأَلَ أُعْطِيَ وَإِذَا حَضَرَ أُدْخِلَ).

(ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرَ) فِي رِوَايَةِ ابْنِ حِبَّانَ (مِسْكِينٌ مِنْ أَهْلِ الصُّقَّةِ).

(هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) (مِنْ مِلءِ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ اللَّامِ مَهْمُوزٌ ، زَادَ أَحْمَدُ وَبْنُ حَبَّانَ (عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَفِي رِوَايَةِ بَنِ حَبَّانَ الْأُخْرَى (خَيْرٌ مِنْ طِلَاعِ الْأَرْضِ مِنَ الْآخِرِ) وَطِلَاعُ بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ وَتَخْفِيفِ اللَّامِ وَآخِرُهُ مُهْمَلَةٌ أَيْ : مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ كَذَا قَالَ عِيَّاضٌ وَقَالَ غَيْرُهُ الْمُرَادُ مَا فَوْقَ الْأَرْضِ . (الفتح) .

١- الحديث دليل على فضل التقوى ، وأن العبرة عند الله بالتقوى والإيمان لا بالأحساب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَقِّ شَخْصَيْنِ : (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا) فَصَارَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ خَيْرًا مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي جَنْسِهِ ؛ وَهَذَا تَبَائُنٌ عَظِيمٌ لَا يَحْصُلُ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ مَنْ قَالَ : " مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ " . وَهُوَ الْيَقِينُ وَالْإِيمَانُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَرُنْتُ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحْتُ ثُمَّ وُزِنَ أَبُو بَكْرٍ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحَ ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحَ ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ) .

وقال الحافظ ابن حجر : وفي الحديث : أَنَّ السِّيَادَةَ بِمُحَرَّدِ الدُّنْيَا لَا أَثَرَ لَهَا ، وَإِنَّمَا الْإِعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِالْآخِرَةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ الَّذِي يُعْوِثُهُ الْحُطُّ مِنَ الدُّنْيَا يُعَاضُ عَنْهُ بِحَسَنَةِ الْآخِرَةِ ، فَفِيهِ فَضِيلَةٌ لِلْفَقْرِ كَمَا تَرَجَّمَ بِهِ ، لَكِنْ لَا حُجَّةَ فِيهِ لِتَفْضِيلِ الْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ كَمَا قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ ، لَكِنْ تَبَيَّنَ مِنْ سِيَاقِ طُرُقِ الْقِصَّةِ أَنَّ جِهَةَ تَفْضِيلِهِ إِنَّمَا هِيَ لِفَضْلِهِ بِالتَّقْوَى .

وقال الشيخ ابن عثيمين : فهذان رجلان أحدهما من أشرف القوم ، ومن له كلمة فيهم ، ومن يجاب إذا خطب ، ويسمع إذا قال ، والثاني بالعكس ، رجل من ضعفاء الناس ليس له قيمة ، إن خطب فلا يجاب ، وإن شفع فلا يشفع ، وإن قال فلا يسمع ، فقال النبي ﷺ (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) أي : خير عند الله عز وجل من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس ينظر إلى الشرف ، والجاه ، والنسب ، والمال ، والصورة ، واللباس ، والمركوب ، والمسكون ، وإنما ينظر إلى القلب والعمل ، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله عز وجل ، وأتاب إلى الله ، وصار ذا كراماً لله تعالى خائفاً منه ، محتباً إليه ، عاملاً بما يرضي الله عز وجل ، فهذا هو الكريم عند الله ، وهذا هو الوجهي عنده ، وهذا هو الذي لو أقسم على الله لأبره .

فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة ، وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا ، ولكنه ليس له قدر عند الله ، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبة منخفضة ، وليس له قيمة عند الناس ، وهو عند الله خير من كثير ممن سواه . (شرح رياض الصالحين) .

٢- جاءت الأحاديث الكثيرة بأن العبرة بالإيمان والتقوى :

منها : ما جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) رواه مسلم .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ ... كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْمَمِيَّةً فَنِلْتُ مِنْهَا فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِي : أَسَابَيْتَ فُلَانًا؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ... الحديث (رواه البخاري ومسلم) .

وفي رواية : فقلت له : يا ابن السوداء . وقوله عليه الصلاة والسلام : فيك جاهليَّةٌ أي خصلة من خصال الجاهلية .

وحديث الباب .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَحِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَعَلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ الْحِرَاءَ بِأَنْفِهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبَيْةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَحَرَهَا بِالْآبَاءِ إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ) رواه الترمذي .

(والجعل) بضم جيم وفتح عين وهو دُوَيْبَةُ سَوْدَاءُ تُدِيرُ الْغَائِطَ يُقَالُ لَهَا الْخُنْفَسَاءُ ، ومعنى (يُدْهِدُهُ) أي يُدْخِرُهُ " بِأَنْفِهِ ، وَالْحِرَاءُ بِكَسْرِ الحَاءِ تَمْدُودًا وَهُوَ الْغَدْرَةُ . (وعُبَيْة)

الجاهلية) بَصَمَ الْعَيْنَ الْمُهْمَلَةَ وَكَسَرَ الْمُوَحَّدَةَ الْمُشَدَّدَةَ وَفَتَحَ السَّخِيَّةَ الْمُشَدَّدَةَ أَيْ نُحَوِّثُهَا وَكَبَّرُهَا .

فكل هذه الأحاديث تدل على ما سبق ذكره من أن الشكل واللون لا يُشكِّلان تَفَاخُرًا وَمِيزَةً وَعِلْوًا وَرَفْعَةً ، والواجب على المسلم أن يقرب المتقين والصالحين .

عن عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ (إِنَّمَا وَلِيُّيَ اللَّهُ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ ... الحديث) متفق عليه .

٣- اختلف العلماء أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر على أقوال :

القول الأول : أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر .

قال الحافظ في الفتح : وصرح كثير من الشافعية بأن الغني الشاكر أفضل .

أ- لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . فَقَالَ «وَمَا ذَاكَ» . قَالُوا يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعَدَكُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ «تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتُحَمِّدُونَ ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً» . قَالَ أَبُو صَالِحٍ فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَعَلُوا مِثْلَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم .

قال النووي : وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ لِمَنْ فَضَّلَ الْغَنِيَّ الشَّاكِرَ عَلَى الْفَقِيرِ الصَّابِرِ ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنَ الطَّوَائِفِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ب- ولقوله ﷺ لسعد (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَعْيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ...) متفق عليه .

ج- ولحديث كعب بن مالك حين استشار في الخروج من ماله كله فقال (أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) متفق عليه .

د- ولحديث عمرو بن العاص . قال : قال ﷺ (يَا عَمْرُؤُ ، نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) رواه مسلم .

هـ- ولحديث سعد . قال : قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ) رواه مسلم .

قال ابن حجر : وهو دال لما قلته سواء حملنا الغني فيه على المال أو على غنى النفس فإنه على الأول ظاهر وعلى الثاني يتناول القسمين فيحصل المطلوب .

و- أن الغني الشاكر نفعه متعدي ، بخلاف الفقير الصابر فنفعه قاصرٌ على نفسه ، فيكون الأول أفضل من الثاني كما في نظائرها من المسائل .

القول الثاني : الفقير الصابر .

لقوله ﷺ (يدخل الفقراء قبل الأغنياء بخمسمائة عام) .

ولقوله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء) .

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن من كان تقياً فهو أفضل .

قال ابن تيمية : قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد وقد حكى في ذلك عن الامام احمد روايتان ، وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر .

وقال طائفة ثالثة : ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ، وإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة وهذا أصح الأقوال ، لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال الله تعالى (إن يكن غنياً أو

فقيراً فالله أولى بهما) .

وقال القرطبي : ذهب قوم إلى تفضيل الغني ؛ لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز ، قال الماوردي : وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة ، وذهب آخرون إلى تفضيل الفقير ؛ لأن الفقير تارك والغني ملابس ، وترك الدنيا أفضل من ملابستها قال الماوردي : وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة .

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين ، قال الماوردي : وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال ، وأن خيار الأمور أوساطها .

قال ابن هبيرة الوزير الحنبلي : ولو لم يكن في الفقر إلا أنه باب رضا الله ولو لم يكن في الغنى إلا أنه باب سخط الله ، لأن الإنسان إذا رأى الفقير رضي عن الله في تقديره ، وإذا رأى الغني تسخط بما هو عليه ، وذلك يكفي في فضل الفقير على الغني .
والراجح - والله أعلم - أن الغني الشاكر أفضل .

٢٥٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ (اِحْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ النَّارُ : فِي الْجِبَارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ . وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : فِي ضِعْفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ ، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا : إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ ، وَلِكُلَيْكُمَا عَلَيَّ مَلُؤُهَُا) رواه مسلم .

١- الحديث دليل على فضل ضعفة المسلمين ومساكينهم ، وأنهم هم أهل الجنة كما تقدم .

وجاء في المسند قال صلى الله عليه وسلم (افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يا رب ، يدخُلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف ، وقالت الجنة : يا رب يدخُلني الضُّعفاء والفقراء والمساكين) وذكر الحديث .

٢- قوله (احتجت الجنة ...) جاء في رواية (تحاجت ..) أي : تحاصمت وتجادلت .

قال النووي : هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي النَّارِ وَالْجَنَّةِ تَمَيِّزًا تُدْرِكَانِ بِهِ فَتَحَاجَّتَا ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ التَّمْيِيزُ فِيهِمَا دَائِمًا .

٣- إثبات الجنة والنار .

٤- بيان عظم سعة الجنة .

٥- بشارة المؤمنين المستضعفين بالجنة، ووعيد المتكبرين والجبارين بالنار.

٦- الجنة دار رحمة الله يرحم بها من يشاء من أوليائه، والنار دار عذابه يعذب بها من يشاء من أعدائه.

٥- دليل على أن الجنة موجودة مخلوقتان .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً .

قال تعالى في الجنة (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى في النار (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) ومعنى أعدت : هيئت .

وعن أنس . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأتم الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ؟ قالوا : وما رأيتم يا رسول الله ؟ قال : رأيتم الجنة والنار) متفق عليه .

ومنها حديث الكسوف وفيه (... إني رأيتم الجنة فتناولت عنقوداً لو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيتم النار ، فلم أر منظرًا كالיום قط أفظع ...) متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمر . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدادة والعشي ، إن كان من أهل الجنة

فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) متفق عليه .
 وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (لما خلق الله الجنة قال لجبريل : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ، ... فلما خلق
 الله النار قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ... الحديث). رواه أبو داود
 وفي حديث البراء الطويل في عذاب القبر وفيه (... أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى
 الجنة ، قال : فيأتيه من طيبها ويفسح له في قبره مد بصره) رواه أبو داود .
 وعن أسامة . قال : قال رسول الله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء)
 متفق عليه .
 والأدلة كثيرة أكتفي بذكر ما مضى .

فائدة :

وقع في رواية البخاري وهم وهو قوله (وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ فَيُلْقَوْنَ فِيهَا) وقد رواه البخاري في عدة مواضع وليس فيها
 هذه اللفظ الخطأ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُورِثْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَرِّبِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا
 يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْحَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ
 عَذَابٌ أُعْذِبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤَهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَنَقُولُ قَطِّ قَطِّ قَطِّ
 فَهَذَا لِكَ تَمْتَلِي وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا)
 متفق عليه .

ورواه أيضاً مسلم على الصواب ، وكذا الإمام أحمد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: وَوَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْبُخَارِيِّ غَلَطٌ قَالَ فِيهِ: «وَأَمَّا النَّارُ فَيُنْشِئُ
 فِيهَا فَضْلًا»، وَالْبُخَارِيُّ رَوَاهُ فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ عَلَى الصَّوَابِ لِيُبَيِّنَ غَلَطَ هَذَا الرَّاوي، كَمَا جَرَتْ عَادَتُهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ إِذَا وَقَعَ مِنْ
 بَعْضِ الرُّوَاةِ غَلَطٌ فِي لَفْظٍ؛ ذَكَرَ أَلْفَاظَ سَائِرِ الرُّوَاةِ الَّتِي يُعَلِّمُ بِهَا الصَّوَابَ، وَمَا عَلِمْتُ وَقَعَ فِيهِ غَلَطٌ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ فِيهِ
 الصَّوَابَ . (منهاج السنة النبوية) .

وذكر ابن القيم عند كلامه على جملة: (وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ فَيُلْقَوْنَ فِيهَا) أَنَّ المراد الجنة وليس النار، وإنما انقلب ذلك
 على بعض الرواة، قال رحمه الله : فهذا غير محفوظ وهو مما انقلب لفظه على بعض الرواة قطعاً كما انقلب على بعضهم : إن
 باللاً يؤذن بليل؛ فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم ، فجعلوه : إن ابن أم مكتوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال" ،
 وله نظائر من الأحاديث المقلوبة من المتن . (أحكام أهل الذمة) .

وقال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: "قال أبو الحسن القابسي: المعروف في هذا الموضع أن الله ينشئ للجنة خلقاً، وأما
 النار فيضع فيها قدمه، قال: ولا أعلم في شيء من الأحاديث أنه ينشئ للنار خلقاً إلا هذا . (الفتح) .

٢٥٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قَالَ (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(الْعَظِيمُ) أي : جثّة، أو جاهاً عند الناس، وفي رواية ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة (الطويل، العظيم، الأكل، الشروب).

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنُّ) لا يعدل .

(عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ) وهي البقّة .

١- الحديث دليل على أن الرجل قد يكون عظيماً عند الناس ، لكن لا قدر له عند الله ، لخلوّ قلبه من الإيمان الذي هو محلّ الوزن يوم القيامة، وبه تتقلّ الموازين ، لأن العبرة بالإيمان والتقوى لا بالأجسام والأموال .
وقد قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

قال ابن كثير : أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب.

وقال السعدي : ... ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلاً بما يستحق.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

وقد ذمّ الله تعالى المنافقين أصحاب الأجسام القويّة المعتدلة، ولكنهم كالأخشاب المسندة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون فهم أشباح بلا أرواح .

فقال تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ) .

قال ابن رجب : وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة مع حسن منظرهم، فَقَالَ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ) .

فوصفهم بحسن الأجسام وقامها، وحسن المقال (وفصاحته) حتى يعجب من منظرهم من رأيهم، ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به، ومع هذا فبواطنهم خراب ومعانيهم فارغة، فلماذا مثلهم بالخشب المسندة، التي لا روح لها ولا إحساس، وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ) لأنهم لما أضمرنا خلاف ما أظهروا خافوا الاطلاع عليهم، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم، وهكذا كل مريب يظهر خلاف ما يضمّر يخاف من أدنى شيء ويحسبه عليه.

وأما المؤمن : فبعكس هذه الصفات، غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم ، لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم ، فقلوبهم ثابتة قوية عامرة ، فيكابدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات والعلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابדתه ، لضعف قلبه، ولا يخافون من ظهور ما في قلوبهم إلا خشية الفتنة على نفوسهم، فإن بواطنهم خير من ظواهرهم، وسرهم أصلح من علانيتهم.

قال سليمان التيمي: أتاني آت في منامي فَقَالَ: يا سليمان إِنَّ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ.

فالمؤمن لما اشتغل بعمارة قلبه عن عمارة قلبه استضعف ظاهره، وربما ازدري، ولو علم الناس ما في قلبه لما فعلوا ذلك.

قال علي لأصحابه: كونوا في الناس كالنحل في الطير كل الطير يستضعفها، ولو علموا ما في جوفها ما فعلوا.

والكافر والمنافق بعكس ذلك، قوي جسمه، لا تقلبه رياح الدنيا، وأما قلبه فإنه ضعيف ، تلاعب به الأهواء المضلة ، فتقلبه يمنة ويسرة ، وكذلك كان مثل قلبه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، كشجر الحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت في الأرض .

٢- الحديث دليل على أن ذا القدر والجاه في الدنيا إذا لم يكن ذا تقوى، فليس له قدر عند الله تعالى.

٣- ذم السمنة المفرطة ، وذلك لأن الغالب أن السمنة إنما تأتي من البطنة؛ أي: من كثرة الأكل، وكثرة الأكل تدل على كثرة المال والغنى ، والغالب على الأغنياء البطر والأشر وكفر النعمة، حتى إنهم يوم القيامة يكونون بهذه المثابة، يؤتى بالرجل العظيم السمين؛ يعني: كثير اللحم والشحم، عظيم كبير الجسم لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، والبعوضة معروفة من أشد الحيوانات امتهاناً وأهونها وأضعفها، وجناحها كذلك.

٤- ذم التوسع في المآكل والكفار (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) .

٥- ذم السمن ، وقد جاء في الحديث : عن عمران بن حصين يحدث أن رسول الله ﷺ قال (إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرِينِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ) . قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَدْرَى أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَرْبِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً « ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيُحْوَنُونَ وَلَا يُتَمَنُونَ وَيَنْدُرُونَ وَلَا يُوفُونَ وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ) متفق عليه .

والمراد بالسمن المذموم البدانة : إذا كان سببها كثرة الأكل أو الخلود إلى الراحة والكسل وعدم العمل .

أما البدانة التي تكون بسبب تقدم السن ، أو تكون بطبيعة الجسم ، كما لو كان الشخص بدينا ورائة مثلاً ؛ فهذه البدانة ليست مذمومة ، ولا يلام عليها الإنسان .

قال النووي : قال جمهور العلماء في معنى هذا الحديث : المراد بالسمن هنا كثرة اللحم، ومعناه أنه يكثر ذلك فيهم، قالوا: وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبُهُ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَةٌ فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا، وَالْمُتَكَسِّبُ لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّعُ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَادِ " انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر (وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ) : أي يُجْبُونَ التَّوَسُّعَ فِي الْمَاكِيلِ وَالْمَشَارِبِ، وَهِيَ أَسْبَابُ السَّمَنِ " انتهى .

وقال الشيخ محمد بن عثيمين : قوله : (ويظهر فيهم السمن) . "السمن" : كثرة الشحم واللحم ، وهذا الحديث مشكل ، لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان ، فكيف يكون صفة ذم ؟!

قال أهل العلم : المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف ، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها . أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه ، فلا يذم عليه ، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسوداً أو أبيضاً ، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه . (القول المفيد) .

ويدل لهذا المعنى أن الحديث ورد في سنن الترمذي (٢١٤٧) بلفظ : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَتَسَمَّنُونَ وَيُجْبُونَ السَّمَنَ) .

وروى ابن ماجه عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِيَّيْ قَدْ بَدَنْتُ، فَإِذَا رَكَعْتَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا رَفَعْتَ فَارْفَعُوا، وَإِذَا سَجَدْتَ فَاسْجُدُوا، وَلَا أَلْفَيْنَ رَجُلًا يَسْبِقُنِي إِلَى الرَّكْعَةِ، وَلَا إِلَى السُّجُودِ) .

قال الخطابي رحمه الله : قوله : (إني قد بدنت) يروى على وجهين :

أحدهما : بدنت بتشديد الدال، ومعناه كبر السن . والآخر: بدنت مضمومة الدال غير مشدودة، ومعناه: زيادة الجسم واحتمال اللحم " انتهى .

وكلا المعنيين قد حصل للرسول ﷺ .

فقد روى أبو داود عن أم قيس بنت محسن (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَسَنَّ وَحَمَلَ اللَّحْمَ، اتَّخَذَ عَمُودًا فِي مُصَلَّاهُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ)

ومثل هذا أيضا ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تصف صلاة الرسول ﷺ بالليل فقالت : (فلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ ... إلخ الحديث) .

فهذه البدانة التي حصلت للرسول ﷺ كانت شيئاً يسيراً ولم تكن بدانة مفرطة ، وكانت بحكم تقدم سنه ﷺ .

٦- الحديث دليل على إثبات الميزان ، هو ميزان حقيقي له كفتان .

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وحديث أبي مالك قال ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان ..) .

ولحديث أبي هريرة . قال ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان ...) .

-واختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال :

القول الأول : أن الذي يوزن الأعمال نفسها .

وإلى هذا ذهب ابن حزم ، والطبي ، وابن حجر .

قال ابن حجر : والصحيح أن الأعمال هي التي توزن .

أ- لقوله ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان) .

ب- ولحديث أبي هريرة قال : قال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ... : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) متفق عليه .

قالوا : هذان الحديتان صريحان في وزن الأعمال أنفسها .

ج- ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

القول الثاني : أن الذي يوزن العامل (أي : صاحب العمل) .

ب- ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد .

القول الثالث : أن الذي يوزن صحائف الأعمال .

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر ، والقرطبي .

لحديث البطاقة وفيه (... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يتقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي .

القول الرابع : أن الجميع يوزن .

وإلى هذا ذهب ابن كثير ، وابن أبي العز ، وحافظ حكيم ، وابن باز وغيرهم .

قال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك : فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال .

وقال حافظ حكيم : الذي استظهر من النصوص - والله أعلم - أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها .

وقال الشيخ ابن باز : الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن ، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة .

وهذا القول هو الراجح .

-فإن قيل : كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض ، لأن الوزن يكون للأجسام ؟

أجاب بعضهم : بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجساماً ثم توزن .

قال ابن كثير : قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضاً قد قام بالفاعل ، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتاً يوضع في الميزان .

وقال ابن أبي العز : فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام ، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً .

٢٥٦ - وعنه : (أَنَّ امْرَأَةً سُودَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ ، أَوْ شَابًّا ، فَفَقَدَهَا ، أَوْ فَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عَنْهَا ، أَوْ عَنْهُ ، فَقَالُوا : مَاتَ . قَالَ : «أَفَلَا كُنْتُمْ آذُنْتُمُونِي» فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا ، أَوْ أَمْرَهُ ، فَقَالَ : «ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَذَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ : «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى . يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ» . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

قوله : «تَقُمُّ» هُوَ يَفْتَحُ النَّاءَ وَضَمُّ الْقَافِ : أَي تَكُنُّ . «وَالْقَمَامَةُ» : الْكُنَاسَةُ ، «وَأَذُنْتُمُونِي» بِمَدِّ الْهَمْزَةِ : أَي : أَغْلَسْتُمُونِ

(أَنَّ امْرَأَةً سُودَاءَ) وجاء عند البيهقي بإسناد حسن من حديث ابن بريدة عن أبيه فسمهاها : (أم محجن) وجاء في رواية (أن رجلاً أسود ، أو امرأة سوداء) والراجح أنها امرأة سوداء ، لرواية البخاري : (أن امرأة أو رجلاً كانت تقم المسجد ، ولا أراه إلا امرأة) فقد ترجح عند الراوي أنه امرأة .

(تَقُمُّ الْمَسْجِدَ) جاء عند ابن خزيمة (كانت تلتقط الخرق والعيدان من المسجد) .

(أَفَلَا كُنْتُمْ آذُنْتُمُونِي) أي : أعلمتموني بموتها حتى أصلي عليه .

(فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا) جاء عند ابن خزيمة (قالوا : مات من الليل ، فكرهنا أن نوظفك) .

(فَقَالَ : ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ) عند البخاري (أو قال : قبرها) .

(فَذَلُّوهُ ، فَصَلَّى عَلَيْهَا) وللبخاري (فأتى قبرها فصلي عليها) .

١- أن العبرة بالإسلام هو بالإيمان والعمل الصالح لا بالأحساب والأنساب .

٢- النهي عن احتقار المسلم ، وقد قال ﷺ (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

٣- استحباب كنس المساجد وتنظيفها ، لأنها بيوت الله .

٤- أن الدعاء ينفع الأموات في الصلاة وخارجها .

٥- إثبات ظلمة القبر وتنويرها .

٦- لا تحتقر أي عمل تُقدِّمه لوجه الله - ولو كان حقيراً في ميزانك - فإن الله قد يقبله في ميزانه ، ويجعله كبيراً .

٧- أن الذي يرفع مكانة الإنسان في الدنيا والآخرة ، هو الله سبحانه .

٨- تواضع النبي ﷺ .

٩- تفقد الإمام رعيته .

١٠- استحباب السؤال عن الخادم ، لأن ذلك يدخل السرور عليه وعلى أهله .

١١- استدل بالحديث من قال بجواز الصلاة على القبر لمن فاتته الصلاة على الميت .

وهذا مذهب جماهير العلماء .

لورود ذلك في أحاديث ، منها :

أ- حديث الباب .

ب- وعن ابن عباس (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَى قَبْرِ بَعْدَ مَا دُفِنَ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا) متفق عليه .

ج- وعن أنسٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى عَلَى قَبْرِ) رواه مسلم .

د- وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما : (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ قَدْ دُفِنَ لَيْلًا ، فَقَالَ : مَتَى دُفِنَ هَذَا ؟ قَالُوا : الْبَارِحَةَ . قَالَ : أَفَلَا آذَنْتُمُونِي ؟! قَالُوا : دَفَنَاهُ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُوقِظَكَ . فَقَامَ فَصَفَقْنَا خَلْفَهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَنَا فِيهِمْ فَصَلَّى عَلَيْهِ) رواه البخاري .
ه- وعن يزيد بن ثابتٍ رضي الله عنه : (أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَى قَبْرًا جَدِيدًا ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : هَذِهِ فُلَانَةٌ ، مَوْلَاةُ بَنِي فُلَانٍ ، فَعَرَفَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، مَاتَتْ ظَهْرًا وَأَنْتَ نَائِمٌ قَائِلٌ (أي : في القيلولة) فَلَمْ نُحِبَّ أَنْ نُوقِظَكَ بِهَا ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفَّ النَّاسَ خَلْفَهُ ، وَكَبَّرَ عَلَيْهَا أَرْبَعًا ، ثُمَّ قَالَ : لَا يَمُوتُ فِيكُمْ مَيِّتٌ مَا دُمْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ إِلَّا آذَنْتُمُونِي بِهِ ؛ فَإِنَّ صَلَاتِي لَهُ رَحْمَةٌ) رواه النسائي وحسنه ابن عبد البر في التمهيد ، وصححه الألباني في صحيح النسائي .

د- عن سعيد بن المسيب (أن أم سعد ماتت والنبي ﷺ غائب فلما قدم صلى عليها وقد مضى لذلك شهر) رواه الترمذي وهو مرسل .
وقد روى ابن أبي شيبة في "المصنف" (٢٣٩/٣) مجموعة من الآثار عن الصحابة والتابعين ممن صلوا على القبور بعد الدفن : منهم عائشة رضي الله عنها حين صلت على قبر أخيها عبد الرحمن ، وابن عمر صلى على قبر أخيه عاصم ، وسليمان بن ربيعة وابن سيرين وغيرهم .
وكذلك ذكره ابن حزم في "المحلى" (٣٦٦/٣) عن أنس وعلي وابن مسعود جميعا .

قال الإمام أحمد : ومن يشك في الصلاة على القبر ، يروى عن النبي ﷺ من ستة وجوه كلها حسان .

-واختلف العلماء في المدة التي إليها يصلى على القبر على أقوال :

القول الأول : يصلى عليها على شهر ، ولا يصلى عليها بعد شهر .

وهذا مذهب الحنابلة .

قال أحمد : أكثر ما سمعنا أن النبي ﷺ صلى على قبر أم سعد بن عبادة بعد شهر .

أ-واستدلوا بمرسل سعيد بن المسيب السابق .

قال أحمد : أكثر ما سمعنا أن النبي ﷺ صلى على قبر أم سعد بن عبادة بعد شهر .

ب-قالوا : ولأن الشهر مدة يغلب على الظن بقاء الميت فيها ، فجاز الصلاة عليه فيها .

القول الثاني : أنه يصلى على الميت في القبر ما لم يبل جسده ويتحقق تمزقه وذهابه .

ودليل هؤلاء : القياس على ما لو كان الميت خارج القبر على وجه الأرض .

القول الثالث : أن يصلى على الميت في القبر إلى ثلاثة أيام .

وهذا مذهب أبي حنيفة .

واستدل هؤلاء بأن الصحابة كانوا يصلون على النبي ﷺ إلى ثلاثة أيام .

القول الرابع : أن الصلاة على القبر تكون لكل من كان من أهل فرض الصلاة على الميت عند موته .

وهذا هو الأرجح عند جمهور الشافعية .

القول الخامس : أن الصلاة على القبر جائزة أبداً .

وهذا وجه عند الشافعية ، وإليه ذهب ابن عقيل من الحنابلة والظاهرية .

واستدل هؤلاء بحديث عقبة بن عامر قال (صلى رسول الله ﷺ على قتلى أخذ بعد ثمانين سنين، كالمودع للأحياء والأموات ...) .

وبوب أبو داود على هذا الحديث فقال : باب الميت يصلى على قبره بعد حين .

قال ابن القيم : وتوبيع أبي داود ، وذكره هذا الحديث يدل على أن ذلك لا يتقيد عنده بوقت لا شهر ولا غيره

وهذا هو الصحيح ، فالصلاة على القبر ليس لها مدة معينة أو حد معين لا تصح الصلاة بعده ، وذلك لأنه لا يصح في الدلالة على

التحديد شيء من النصوص .

قال ابن حزم : أما أمر تحديد الصلاة بشهر أو ثلاثة أيام فخطأ لا يشكل ، لأنه تحديد بلا دليل . (انتهى) .

لكن القبور القديمة التي لها سنين عديدة لا يُصلى عليها ، وقد نقل ابن عبد البر إجماع العلماء على ذلك ، بل إن ما قدم عهده من القبور تكرر الصلاة عليه ، لأنه لم يأت عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه أنهم صلوا على القبر إلا بمحدثان ذلك .

-قال الشيخ ابن عثيمين : والصحيح أنه نصلي على القبر ولو بعد شهر ، إلا أن بعض العلماء قيده بقيد حسن ، قال : بشرط أن يكون هذا المدفون مات في زمن يكون فيه هذا المصلي أهلاً للصلاة .

مثال ذلك : رجل مات قبل عشرين سنة ، فخرج إنسان وصلى عليه وله ثلاثون سنة ، فيصح ؛ لأنه عندما مات كان للمصلي عشر سنوات ، فهو من أهل الصلاة على الميت .

مثال آخر : رجل مات قبل ثلاثين سنة ، فخرج إنسان وصلى عليه وله عشرون سنة ليصلي عليه ، فلا يصح ؛ لأن المصلي كان معدوماً عندما مات الرجل ، فليس من أهل الصلاة عليه .

ومن ثم لا يشرع لنا نحن أن نصلي على قبر النبي ﷺ ، وما علمنا أن أحداً من الناس قال : إنه يشرع أن يصلي الإنسان على قبر النبي ﷺ أو على قبور الصحابة ، لكن يقف ويدعو .

١٢- ذهب جمهور العلماء إلى جواز الصلاة على الجنائز في المقبرة .

فهو قول الحنفية ، والمالكية ، والحنابلة ، والظاهرية .

أ- فعل النبي ﷺ .

للأحاديث السابقة كحديث أبي هريرة (حديث الباب) وحديث ابن عباس وحديث أنس ، فإن فيها فعل النبي ﷺ ، فإنه صلى على الميت في قبره وهو في المقبرة ، وهذا الفعل من النبي ﷺ تخصيص للنهي عن الصلاة في المقبرة .

قال ابن حزم - بعد أن ساق الآثار في النهي عن الصلاة في المقبرة وصلاته ﷺ على قبر المسكينة السوداء - قال : وكل هذه الآثار حق ، فلا تحل الصلاة حيث ذكرنا ، إلا صلاة الجنائز فإنها تصلى في المقبرة .

٢٥٧ - وعنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ) رواه مسلم .

(رَبُّ أَشْعَثَ) الْأَشْعَثُ : الْمَلْبَدُ الشَّعْرَ الْمُعَبَّرَ غَيْرَ مَدْهُونَ وَلَا مُرَجَّلَ .

(أَغْبَرَ) أَي : لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْغَبَارِ لِقَلَّةِ تَعَاهُدِهِ بِالنِّظَافَةِ بِسَبَبِ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ .

(مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ) أَي : لَا قَدْرَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ فَهُمْ يَدْفَعُونَهُ عَنِ أَبْوَابِهِمْ ، وَيَطْرُدُونَهُ عَنْهُمْ إِحْتِقَارًا لَهُ .

قال القرطبي : والمدفوع بالأبواب، أي: عن الأبواب ، فلا يترك بقرها احتقاراً له ، ويصح أن يكون معناه: يدفع بسد الأبواب في وجهه كلما أراد دخول باب من الأبواب، أو قضاء حاجة من الحوائج .

(لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ) أَي : حَلَفَ عَلَى وَفُوعِ شَيْءٍ أَوْفَعَهُ اللَّهُ إِكْرَامًا لَهُ بِإِجَابَةِ سُؤَالِهِ ، وَصِيَانَتِهِ مِنَ الْخِنْتِ فِي يَمِينِهِ ، وَهَذَا لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا عِنْدَ النَّاسِ . وَقِيلَ : مَعْنَى الْقَسَمِ هُنَا الدُّعَاءُ ، وَإِثْرَارُهُ إِجَابَتَهُ .

قال القرطبي : أي لو وقع منه قسم على الله في شيء لأجابه الله تعالى فيما سأله؛ إكراماً له، ولطفاً به، وهذا كما تقدم من قول أنس بن النضر: لا والله لا تكسر ثنية الربيع أبداً. فأبر الله قسمه؛ بأن جعل في قلوب الطالبين للقصاص الرضا بالدية، بعد أن أبوا قبولها، وكنحو ما اتفق للبراء لما التقى بالكفار فاقتلوا، فطال القتال، وعظم النزال، فقال البراء: أقسمت عليك يا رب - أو: عزمت عليك - لتمنحنا أكتافهم، ولتلحقني بنبيك، فأبر الله قسمه، فكان كذلك. ولقد أبعده من قال: إن القسم - هنا - هو الدعاء من جهة اللفظ والمعنى . (المفهم) .

١- الحديث دليل على أن الله لا ينظر إلى صورة العبد ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال .

٢- الحث على عدم الاستهانة بالضعفاء والخالطين من أجل مظاهرهم في الدنيا فقد يكونون عظماء المنزلة عند الله تعالى .

٢- على الإنسان أن يعتني بعمله وطهارة قلبه أكثر من عنايته بجسمه وملبسه.

٣- ميزان الرجال بالأعمال لا بالمظاهر والأنساب والأموال.

٤- التواضع لله والتذلل له سبب في إجابة الدعاء، ولذلك؛ فالله - سبحانه - يبر قسم الأتقياء الأخفياء.

٢٥٨ - وعن أسامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ (قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَةٌ مِّنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ. وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَةٌ مِّنْ دَخَلَهَا التِّسَاءُ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. «وَالجُدُّ»: بفتح الجيم: الحظ والعنى. وقوله: «مُحْبُسُونَ» أي: لم يُؤذَنَ لَهُمْ بَعْدَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

(أصحاب الجلد) بفتح الجيم أي الغنى .

١- الحديث دليل على أن الفقراء والمساكين يدخلون الجنة قبل الأغنياء .

روى مسلم في (صحيحه) عن عبد الله بن عمرو قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ (إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيْفًا) .

وروى الترمذي عن أبي سعيد ، وأحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة) .

وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه، هذا مع جهادهم وفضلهم :
عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيفنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ قال : فيفتح لهم، فيقولون فيه أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس) رواه الحاكم .

تنبيه :

ما جاء في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفاً، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام، ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفو الحال، وكذلك الأغنياء - كما يقول القرطبي- . فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولاً الجنة وآخر الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولاً الجنة وأول الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة أربعين خريفاً، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء .

٢- قوله (وَأَصْحَابُ الْجِدِّ مُحْبُسُونَ) قال في الفتح : (محبسون) أي : ممنوعون من دخول الجنة مع الفقراء من أجل المحاسبة على المال وكأن ذلك عند القنطرة التي يتقاصون فيها بعد الجواز على الصراط .

وقال ابن بطال : قال المهلب : فيه من الفقه أن أقرب ما يدخل به الجنة التواضع لله تعالى ، وأن أبعد الأشياء من الجنة التكبر بالمال وغيره ، وإنما صار أصحاب الجدد محبسون لمنعهم حقوق الله الواجبة للفقراء في أموالهم ، فحبسوا للحساب عما منعه ، فأما من أدى حقوق الله في أمواله ، فإنه لا يجبس عن الجنة ، إلا أنهم قليل ، إذ أكثر شأن المال تضييع حقوق الله فيه ؛ لأنه محنة وفتنة ، ألا ترى قوله : (فكان عامة من دخلها المساكين) ، وهذا يدل أن الذين يؤدون حقوق المال ويسلمون من فتنته هم الأقل . (شرح ابن بطال) .

وقال ابن تيمية : فالفقراء متقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه وإن تأخر في الدخول ؛ كما إن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة بن محصن وقد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم .

وقال في موضع آخر : ونصوص النبي ﷺ معتدلة فإنه قد روي (أن الفقراء قالوا له : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور . يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضول أموال يتصدقون بها ولا نتصدق فقال : ألا أعلمكم شيئا ؟ إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم ولم يلحقكم من بعدكم إلا من عمل مثل عملكم فعلمهم التسبيح المائة في دبر كل صلاة . فجاؤا إليه فقالوا : إن إخواننا من الأغنياء سمعوا ذلك ففعلوه فقال : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) وهذه الزيادة في صحيح مسلم من مراسيل أبي صالح .

فهذا فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية بالقلب والبدن وزادوا عليهم بالإففاق في سبيل الله ونحوه من العبادات المالية . وثبت عنه أيضا في الصحيح أنه قال (يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم - خمسمائة عام - وفي رواية بأربعين خريفا) فهذا فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء المؤمنين وكلاهما حق ؛ فإن الفقير ليس معه مال كثير يحاسب على قبضه وصرفه فلا يؤخر عن دخول الجنة لأجل الحساب فيسبق في الدخول وهو أحوج إلى سرعة الثواب لما فاتته في الدنيا من الطيبات .

والغني يحاسب فإن كان محسناً في غناه غير مسيء وهو فوقه رفعت درجته عليه بعد الدخول ، وإن كان مثله ساواه وإن كان دونه نزل عنه ، وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير

٣- إخبار النبي ﷺ بالمغنيات بأحوال أهل الجنة والنار.

٤- أول من يدخل الجنة المساكين والفقراء، إكراماً لهم على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

٥- لا ينفع مال ولا بنون يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم.

٦- خطر فتنة المال .

٧- قليل من يسلم من فتنة المال .

٨- النساء اللاتي يعصين ربهن وينكرن الجميل ويكفرن العشير يدخلن النار.

٩- المال مسؤولية كبيرة عند الله تعالى، فينبغي على مالكة أن يضعه حيث أمر الله ليكون حسابه يوم القيامة يسيراً .

١٠- فضل الفقراء الصابرين على الضراء.

١١- أن الذين يؤدون حقوق المال، ويسلمون من فتنته هم الأقلون، وأن الكفار يدخلون النار ولا يجسبون عنها.

١٢- قوله (فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا النَّسَاءُ) :

قال العيني : قَالَ الْمُهْلَبُ: " إِذَا تَسْتَحَقَّ النَّسَاءُ النَّارَ : لِكُفْرِهِنَّ الْعَشِيرِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِذَا كَانَ النَّسَاءُ أَقْلَ سَاكِنِي الْجَنَّةِ : لِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِنَّ الْهَوَى وَالْمِيلُ إِلَى عَاجِلِ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِنَقْصَانِ عَقُولِهِنَّ، فَيُضْعَفْنَ عَنِ عَمَلِ الْآخِرَةِ وَالتَّأَهُبِ لَهَا ، لِمِيلِهِنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَالتَّرْتِيكِ بِهَا، وَأَكْثَرِهِنَّ مَعْرُضَاتُ عَنِ الْآخِرَةِ ، سَرِيعَاتُ الْإِنْخِدَاعِ لِرَاغِبِيهِنَّ مِنَ الْمَعْرُضِينَ عَنِ الدِّينِ، عَسِيرَاتُ الْإِسْتِجَابَةِ لِمَنْ يَدْعُوهُنَّ إِلَى الْآخِرَةِ وَأَعْمَالِهَا . (عمدة القاري) .

٩- قوله (فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا النَّسَاءُ) جاءت أحاديث تفيد أن النساء في الجنة أقل من الرجال .

كحديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قَالَ (إِنَّ أَقْلَ سَاكِنِي الْجَنَّةِ النَّسَاءُ) رواه مسلم .

وعن ابن عباس قال : قال ﷺ (اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النَّسَاءَ). رواه مسلم وحديث الباب (وَفُتِّتْ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا النَّسَاءُ) .

وعن ابن عباس قال : قال ﷺ (أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النَّسَاءُ) متفق عليه .

وعن جابر . قال : قال ﷺ (تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم) رواه مسلم .

وجاءت أحاديث تفيد أن النساء في الجنة أكثر .
عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَصْوَابِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ أَنْتَانِ يُرَى مِخُّ سَوْقَيْهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْرَبُ) متفق عليه .
وللبخاري (لكل امرئ زوجتان من الحور العين) .

فقييل : إن النساء من بني آدم في الجنة أقل من الرجال ، وأما إذا انضم إليهن الحور العين فإنهن بلا شك أكثر من الرجال .
ورجح هذا القرطبي ، وابن القيم .

لحديث عمران السابق (إِنَّ أَقْلَ سَاكِنِي الْجَنَّةِ النِّسَاءُ) .

وأجابوا عن قوله ﷺ (لكل امرئ منهم زوجتان) بأن المراد بالزوجتين : أي من الحور العين .

وقيل : النساء في الجنة أكثر من الرجال .

ورجح هذا القاضي عياض ، وابن تيمية ، والعراقي .

للحديث السابق (لكل امرئ منهم زوجتان) فقالوا : إن المراد بالزوجتين : أي من نساء الدنيا .

قال العراقي : الزوجتان من نساء الدنيا والزيادة على ذلك من الحور العين .

واستدلوا على كون المراد بالزوجتين في الحديث السابق من نساء الدنيا ، بالأحاديث التي ورد فيها أن المؤمن يكون له في الجنة

العدد الكثير من الحور العين كقوله ﷺ (للشهيد عند ربه ست خصال ... ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين) .

فقالوا : إن هذا الحديث وما في معناه يدل على أن المؤمن له في الجنة أكثر من زوجتين من الحور العين ، وعلى هذا تكون

الزوجتان - في حديث أبي هريرة - من نساء الدنيا . والله أعلم .

٢٥٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةً: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَاتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَيَّ صَلَاتِي فَانصرفت. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ الْمُؤْمَسَاتِ. فَتَذَاكِرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَعْغِي يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لِأَفْسِنَتْهُ، فَعَرَّضْتُ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَيْهَا، فَاتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكْنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وُلِدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَاتَوَّهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَعْغِي فَوُلِدَتْ مِنْكَ. قَالَ: أَيْنَ الصَّبِيِّ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّي، فَصَلَّى فَلَمَّا انصرفت أتى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي، فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ جُرَيْجٍ يُقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبِيَّ لَكَ صَوْمَعَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ التَّدْيِيَّ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ نَدِيهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةِ فِي فِيهِ، فَجَعَلَ يُمْصُهَا، قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتَ سَرَقْتَ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَالِكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأُمِّهِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتَ سَرَقْتَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟! قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ: زَنَيْتَ، وَلَمْ تَزِنْ وَسَرَقْتَ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

«المؤمسات» بضم الميم الأولى، وإسكان الواو وكسر الميم الثانية وبالسين المهملة؛ وهن الزواني. والمؤمسة: الزانية. وقوله: «دَابَّةٌ فَارِهَةٌ» بالفاء: أي خادقة نفيسة. «والشارة» بالشين المعجمة وتخفيف الزاء: وهي الجمال الظاهر في الهيئة والملبس. ومعنى «تراجعا الحديث» أي: حدثت الصبي وحدثها، والله أعلم.

لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ)

(إِلَّا ثَلَاثَةً: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) عليه السلام .

(وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ) سم شرح قصة جريج .

(فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً) معبد النصرى .

(فَاتَتْهُ أُمُّهُ) قال الحافظ : ولم أف في شيء من الطرق على اسمها ، وفي حديث عمران بن حصين وكانت أمه تأتيه فتناديه فيشرف عليها فيكلمها فأتته يوما وهو في صلاته ، وفي رواية أبي رافع عند أحمد : فأتته أمه ذات يوم فنادته قالت أي جريج أشرف علي أكلمك أنا أمك .

(فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي) أي : اجتمع عليّ إجابة أمي وإتمام صلاتي ، فوفقي لأفضلهما .

قال القرطبي : قوله يدل على : أن جريجاً كان عابداً ، ولم يكن عالماً؟ إذ بأدنى فكرة يدرك أن صلاته كانت ندباً ، وإجابة أمه كانت عليه واجبة، فلا تعارض يوجب إشكالاً، فكان يجب عليه تخفيف صلاته، أو قطعها، وإجابة أمه، لا سيما وقد تكرر مجيئها إليه، وتشوقها واحتياجها لمكالمته. وهذا كله يدل على تعين إجابته إياها، ألا ترى أنه أغضبها بإعراضه عنها، وإقباله على صلاته؟

(فَأَقْبَلَ عَلَيَّ صَلَاتِي) وفي رواية البخاري (فَدَعَتْهُ فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أَصَلِّي) وفي رواية له (فأبى أن يجيبها) ، وفي حديث عمران

بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّهَا جَاءَتْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تُنَادِيهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ فَقَالَ أُمِّي وَصَلَاتِي لِرَبِّي أَوْثَرُ صَلَاتِي عَلَى أُمِّي ذَكَرَهُ ثَلَاثًا .

قال الحافظ : وَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ قَالَهُ فِي نَفْسِهِ لَا أَنَّهُ نَطَقَ بِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَطَقَ بِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ مُبَاحًا عِنْدَهُمْ وَكَذَلِكَ كَانَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ قَدَّمْتُ فِي أَوَاخِرِ الصَّلَاةِ ذِكْرَ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِيهِ رَفَعَهُ لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ عَالِمًا لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَةَ أُمِّهِ أَوْلَى مِنْ صَلَاتِهِ .

(فَانصَرَفَتْ) أي : رجعت إلى بيتها بعد أن أيست من إجابة ولدها نداءها .

(فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ ... فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تُؤْتِنِي حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ) وفي رواية البخاري (فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُؤْتِنِي حَتَّى تُرِيَهُ وَوَجْهَهُ الْمُؤْمِسَاتِ) وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ (حَتَّى يَنْظُرَ فِي وُجُوهِ الْمَيَامِيسِ) وَمِثْلُهُ فِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ وَفِي رِوَايَةِ أَبِي زَافِعٍ (حَتَّى تُرِيَهُ الْمُؤْمِسَةَ) بِالْإِفْرَادِ وَفِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ (فَعَضِبَتْ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا يَمُوتَنَّ جُرَيْجٌ حَتَّى يَنْظُرَ فِي وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ) وَالْمُؤْمِسَاتُ جَمْعُ مُؤْمِسَةٍ بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَكَسْرِ الْمِيمِ بَعْدَهَا مُهْمَلَةٌ وَهِيَ الرَّائِيَةُ .

(فَتَذَاكِرُ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ ، وَكَانَتْ امْرَأَةً بَغِيًّا) أي : زانية .

(يَتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا) أي : يضرب بجمالها المثل ، لانفرادها به عن نساء قومها .

(فَقَالَتْ : إِنْ شِئْتُمْ لِأَفْسِنَتْهُ) زاد في رواية أحمد (قالوا : قد شئنا) .

(فَتَعَرَّضَتْ لَهُ) أي : طلبت منه أن يواقعها .

(فَلَمَّ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، فَاتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ ، فَأَمَكْنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا ، فَحَمَلَتْ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ ، قَالَتْ)
أي : فلما سأها : من هذا الولد ؟ قالت :

(هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ) وفي رواية (فَقَالَتْ هُوَ مِنْ صَاحِبِ الدَّيْرِ) وَزَادَ فِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ (فَأُحْدِثُ وَكَانَ مِنْ زَيْنٍ مِنْهُمْ قَتِيلٌ فَقِيلَ لَهَا مِنْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ صَاحِبِ الصَّوْمَعَةِ) زَادَ الْأَعْرَجُ (نَزَلَ إِلَيَّ مِنْ صَوْمَعَتِهِ) وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ (فَقِيلَ لَهَا مِنْ صَاحِبِكِ قَالَتْ جُرَيْجُ الرَّاهِبِ نَزَلَ إِلَيَّ فَأَصَابَنِي) زَادَ أَبُو سَلَمَةَ فِي رِوَايَتِهِ (فَذَهَبُوا إِلَى الْمَلِكِ فَأَخْبَرُوهُ قَالَ أَدْرِكُوهُ فَأَتُونِي بِهِ) .
(فَأَتَوْهُ) أي : أتاه أهل القرية .

(فَاسْتَنْزَلُوهُ) أي : طلبوا نزوله إليهم .

(وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ) وَفِي حَدِيثِ عِمْرَانَ (فَمَا شَعَرَ حَتَّى سَمِعَ بِالْمُتُوسِ فِي أَصْلِ صَوْمَعَتِهِ فَجَعَلَ يَسْأَلُهُمْ وَيُنْكِمُ مَالِكُمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَخَذَ الْحُجْلَ فَتَدَلَّى) .

(فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قَالُوا : زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ . قَالَ : أَيْنَ الصَّبِيِّ ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فَقَالَ : دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ فَصَلَّى)
أي : بعد أن توضأ ، ففي رواية البخاري (فتوضأ وصلّى) وفي رواية وهب بن جرير (فقام وصلّى ودعا) وفي حديث عمران (قال فتولوا عني فتولوا عنه فصلى ركعتين) .

(فَصَلَّى فَلَمَّا انصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ ، وَقَالَ : يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ ؟ قَالَ : فُلَانُ الرَّاعِي) وَفِي رِوَايَةِ أَبِي زَافِعٍ (ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ قَالَ رَاعِي الضَّانِ) وَفِي رِوَايَةِ عِنْدَ أَحْمَدَ (فَوَضَعَ أُصْبَعَهُ عَلَى بَطْنِهَا) وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ (فَأُتِيَ بِالْمَرْأَةِ وَالصَّبِيِّ وَفَمَّهُ فِي ثَدْيِهَا فَقَالَ لَهُ جُرَيْجٌ يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ فَتَرَخَ الْغُلَامُ فَاهُ مِنَ التَّدْيِ وَقَالَ أَبِي رَاعِي الضَّانِ) وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ (فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَى مَلِكِهِمْ قَالَ جُرَيْجٌ أَيْنَ الصَّبِيِّ الَّذِي وَلَدْتَهُ فَأُتِيَ بِهِ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فُلَانٌ سَمَى أَبَاهُ) .

قال الحافظ : وَلَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمِ الرَّاعِي .

(فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ) تبركاً به .

(وَقَالُوا: نَبِيٌّ لَكَ صَوْمَعَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا) فِي رِوَايَةٍ وَهَبِ بْنِ جَرِيرٍ (ابْنُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ) وَفِي رِوَايَةِ أَبِي زَافِعٍ (فَقَالُوا نَبِيٌّ مَا هَدَمْنَا مِنْ دَرِيكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ كَمَا كَانَ فَفَعَلُوا) .
(وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَبْرُضُ مِنْ أُمِّهِ) قَالَ الْحَافِظُ : لَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمِهَا ، وَلَا عَلَى اسْمِ ابْنِهَا .
(فَمَرَّ رَجُلٌ) وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ (فَارَسَ مُتَكَبِّرٌ) .

(رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الدَّابَّةُ الْفَارِهَةُ الْحَسَنَةُ النَّجِيَّةُ .

(وَشَارَةٌ حَسَنَةٌ) الشَّارَةُ : الْهَيْئَةُ الْمُرْتَبَةُ الَّتِي يَشَارُ إِلَيْهَا مِنْ حَسَنِهَا .

(فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ) الصَّبِيِّ .

(الثَّدْيِي) أَي : ارْتِضَاعِ الثَّدِيِّ .

(قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا) وَفِي رِوَايَةٍ (جُبَّرٌ وَيُلْعَبُ بِهَا) .

(وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَفَتِ) بِكَسْرِ التَّاءِ .

(وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ (يَقُولُونَ : سَرَقْتَ وَلَمْ تَسْرِقْ ، زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِي) .

(فَقَالَتْ أُمُّهُ) أَي : أُمُّ الصَّبِيِّ .

(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهَذَاكَ) أَي : فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، أَوْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .

(تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ) قَالَ النَّوَوِيُّ : مَعْنَى تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ أَقْبَلْتُ عَلَى الرِّضْعِ مُحَدِّثُهُ ، وَكَانَتْ أَوَّلًا لَا تَرَاهُ أَهْلًا لِلْكَلامِ ، فَلَمَّا تَكَرَّرَ مِنْهُ الْكَلَامُ عَلِمَتْ أَنَّهُ أَهْلٌ لَهُ ، فَسَأَلْتَهُ ، وَرَاجَعْتَهُ .

(فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهِدِ الْأُمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَفَتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟!) أَي : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي سَالِمًا مِنَ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَ سَالِمَةٌ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِثْلَهَا فِي النَّسَبَةِ إِلَى بَاطِلٍ تَكُونُ مِنْهُ بَرِيئَةً .

(قَالَ) الصَّبِيِّ .

(إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا) وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ (فَقَالَ : يَا أُمَّتَاهُ ، أَمَا الرَّكَبُ ذُو الشَّارَةِ فَجَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ) .

١- الحديث دليل على عدم الاغترار بالمظاهر .

ففي الحديث قول الطفل الرضيع عن الرجل صاحب الشارة والدابة الفارهة (اللهم لا تجعلني مثله) ، لأنه كان جباراً ظالماً .
ومما يؤكد هذا :

ما تقدم من قوله ﷺ (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بَعْضِيَّةٍ) .

وقوله ﷺ (رَبِّ أَشَعَتْ، مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ) .

وقوله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) .

٢- أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد .

قال تعالى (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) .

٣- قوله ﷺ (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةً) فَذَكَرَهُمْ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ الصَّبِيُّ الَّذِي كَانَ مَعَ الْمَرْأَةِ فِي حَدِيثِ السَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ ،

وَقِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ الْمَذْكُورِ فِي آخِرِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَجَوَابِهِ أَنَّ ذَلِكَ الصَّبِيِّ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَهْدِ ، بَلْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْ صَاحِبِ الْمَهْدِ ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا . (نووي) .

وقال العيني : فَإِنِ قُلْتُ : ظَاهِرُ هَذَا يَقْتَضِي الْحَصْرَ وَمَعَ هَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ شَاهِدٌ يُوسُفُ كَانَ فِي الْمَهْدِ قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ . وَعَنِ الضَّحَّاكِ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَفِي حَدِيثِ صُهَيْبٍ أَنَّهُ لَمَّا خَدَّدَ الْأُخْدُودَ تَقَاعَسَتْ امْرَأَةٌ عَنِ الْأُخْدُودِ فَقَالَ لَهَا صَبِيهَا وَهُوَ يَرْضَعُ مِنْهَا يَا أُمَّهُ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ . (قلت): الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ بِوَجْهَيْنِ :

أحدهما : أَنَّ الثَّلَاثَةَ الْمَذْكُورِينَ فِي الصَّحِيحِ لَيْسَ فِيهَا خِلَافٌ وَالْبَاقُونَ مُخْتَلَفٌ فِيهِمْ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ: كَانَ صَاحِبُ يُوسُفَ دَا حَلِيَّةً؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الشَّاهِدُ هُوَ الْقَمِيصُ .

وَالْجَوَابُ الْآخَرُ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ أَوَّلًا ثُمَّ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى غَيْرِهِمْ وَقَدْ يُقَالُ التَّنْصِيصُ عَلَى الشَّيْءِ بِاسْمِهِ الْعَلَمُ لَا يَقْتَضِي الْخُصُوصَ سِوَاءَ كَانَ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ بِاسْمِهِ الْعَدَدَ مَقْرُونًا أَوْ لَمْ يَكُنْ (قلت): الْخِلَافُ فِيهِ مَشْهُورٌ . (عمدة القارئ)

وقال القرطبي : وظاهر هذا الحصر يقتضي أن لا يوجد صغير تكلم في المهد إلا هؤلاء الثلاثة، وهم: عيسى، وصبي جريج، والصبي المتعوز من الجبار.

وقد جاء من حديث صهيب المذكور في تفسير سورة البروج في قصة الأخدود: أن امرأة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي لها في - غير كتاب مسلم: يرضع - فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري، فإنك على الحق. وقال ابن عباس : إن شاهد يوسف كان صبياً في المهد، وقال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبي ماشطة امرأة فرعون وعيسى، ويحيى، وصاحب جريج، وصاحب الأخدود.

قلت: فأسقط الضحاك صبي الجبار، وذكر مكانه يحيى، وعلى هذا فيكون المتكلمون في المهد سبعة، فبطل الحصر بالثلاثة المذكورين في الحديث.

قلت : وَيَجَابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ الثَّلَاثَةَ الْمَذْكُورِينَ فِي الْحَدِيثِ هُمُ الَّذِينَ صَحَّ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي الْمَهْدِ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِيهِمْ فِيمَا عَلِمْتَ، وَاخْتَلَفَ فِيمَنْ عَدَاهُمْ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا كِبَارًا يَحِثُّ يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ، وَلَيْسَ فِيهِمْ أَصْحَابٌ مِنْ حَدِيثِ صَاحِبِ الْأُخْدُودِ، وَلَمْ تَسْلَمْ صِحَّةُ الْجَمِيعِ، فَيَرْتَفِعُ الْإِشْكَالُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ بِمَا كَانَ فِي عِلْمِهِ مِمَّا أَوْحَى عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَشْيَاءَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ عَلَى مَا فِي عِلْمِهِ . (المفهم) .

وقال الشيخ الألباني: لا يخالف هذا الحصر كلام صبي الأخدود الآتي في الحديث (٢٠٩٤). لأنه ليس فيه أنه كان في المهد، بل كان أكبر من صاحب المهد، وإن كان صغيراً يرضع، وأما حديث (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى وشاهد يوسف، وصاحب جريج وابن ماشطة بنت فرعون) فحديث باطل كما بينته في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) وأما ما ذكره بعضهم أن يحيى عليه السلام ممن تكلم في المهد، فمما لا أصل له مرفوعاً، وإنما هو من زعم الضحاك في تفسيره كما ذكر الحافظ في "الفتح" .
تنبيه :

قصة أصحاب الأخدود فقد وردت في حديث صهيب الرومي رضي الله عنه عن النبي ﷺ، في حديث طويل، قال فيه : (فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ، فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ . فَقَالَ الصَّبِيُّ : يَا أُمَّهُ، اصْبِرِي، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ) . رواه الإمام أحمد

وقد رواه الإمام مسلم في (صحيحه) ولكن قال فيه : (حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها) ولم يقل إنه يرضع ، الأمر الذي اقتضى بالإمام النووي رحمه الله أن يقول : " ذلك الصبي لم يكن في المهد ، بل كان أكبر من صاحب المهد وإن كان صغيراً .

٤ - عِظَمُ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَتَأْكِدُ حَقِّهَا ، وَأَنَّ دُعَاءَهَا مُجَابٌ .

٥- أَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْأُمُورُ بُدِيَ بِأَهْوَاهَا .

قال ابن تيمية : وتمازج الودع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناهما على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات .

٦- قال الحافظ : وفي الحديث إينار إجابة الأم على صلاة التطوع لأن الاستمرار فيها نافلة وإجابة الأم وبرها واجب . قال النووي وغيره: إنما دعت عليه فأجيب لأنه كان يحق أن يخفف ويؤمها لكن لعله خشى أن تدعوه إلى مفارقة صومعته والعود إلى الدنيا وتعلقها كذا قال النووي، وفيه نظر لما تقدم من أنها كانت تأتيه فيكلمها والظاهر أنها كانت تشتاق إليه فتزوره وتفتن برؤيته وتكليمه وكأنه إنما لم يخفف ثم يؤمها لأنه خشى أن ينقطع خشوعه وقد تقدم في أواخر الصلاة من حديث يزيد بن حوشب عن أبيه أن النبي ﷺ قال لو كان جريح فقيها لعلم أن إجابة أمه أولى من عبادة ربه أخرجه الحسن بن سفيان . (الفتح) .

٧- عظيم قدرة الله في إحداث الأشياء الخارقة للعادة ، تأييداً لعباده الصالحين .

٨- الظاهر أن المنعة التي كان يجدها جريح في صلاته لا تتصور ، وإلا فإنه كان قادراً على أن يخفف في صلاته ويجيبها . وصدق ربنا إذ يقول (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) فالخشوع في الصلاة لا يتصوره إلا من عرفه، كأمثال: جريح ﷺ .

٩- غضبت الأم على ابنها فدعت عليه دعوة غريبة: دعوة فتنة في دينه بأن لا يموت حتى يرى وجوه البغايا .

وقد أخبرنا النبي ﷺ أنها لو دعت عليه بالفتنة لفتن كما جاء في رواية أخرى للحديث عند مسلم .

١٠- أن دعاء الوالدين لأولادهم أو عليهم مستجاب، فاحرص على أن يدعوا لك بالخير، واحذر دعاءهما عليك بالشر .

وفي هذا يقول المصطفى ﷺ (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم) .

١١- أن الله تعالى يجعل لأوليائه محارج عند إبتلائهم بالشدائد غالباً . قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) وقد يجري عليهم الشدائد بعض الأوقات زيادة في أحوالهم ، وتهديباً لهم ، فيكون لطفاً .

١٢- يبدو أن جريماً كان معروفاً بعفته ، وعدم التفاته للنساء، حتى اختارت الأم هذه الدعوة .

١٣- قد يكون الحسد في كل شيء حتى في العبادة ، فصاحب العبادة يحسده البعض على حسن خلقه، وعظيم تقواه، وكثير مدح الناس له، فيحب الحساد أن يشوهوا سمعته ، كما حصل مع العابد جريح .

١٤- ليس كل الحسن خير، فالحسن فتنة ، على صاحبه أن يصونها، خصوصاً إذا كان صاحب الحسن امرأة ، يقول ﷺ (ما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء) فهذه المرأة استعملت حسنها في الشر والحرام، وهي أيضاً مغرورة متكبرة بجمالها حتى تباغت به للفتنة أمام القوم، بدل أن تشكر الله على هذه النعمة، وتمتع بها زوجها، راحت تبحث عن الحرام بأبشع صورته .

١٥- استحباب الوضوء للصلاة عند الدعاء بالمهمات .

١٦- يحاول أهل الرذيلة تشويه صفحة الصالحين، كما حصل مع قوم جريح لأنه وقع في رواية أخرى أنها قالت: إن شتمت لأفتننه لكم، قالوا: قد شتمنا .

١٧- التقوى تعصم صاحبها من الوقوع في الرذيلة، كما حصل مع جريح، وكما في قصة يوسف ﷺ .

١٨- أن الوضوء كان معروفاً في شرع من قبلنا ، فقد ثبت في هذا الحديث في كتاب البخاري فتوضأ وصلى ، وإنما الذي يختص بها العزة والتعجيل في الآخرة وقد تقدم في قصة إبراهيم أيضاً مثل ذلك في خبر سارة مع الجبار .

١٩- استعملت المرأة حيلة خبيثة، حيث مكنت الراعي من نفسها فحملت، ولما ولدت ادعت أنه من جريج ، وكم تقدر النساء على الإغواء لأن كيدهن عظيم، فهن يصرعن ذا اللب الحكيم ، وقد كان الزنا وانتشار البغايا معروفا في بني إسرائيل، فأول ما فتنوا به النساء كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه السلام .

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوعٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ".

٢٠- إثبات كرامات الأولياء ، وهو مذهب أهل السنة خلافا للمعتزلة .

٢١- أن صاحب الصدق مع الله لا تضربه الفئس .

٢٢- قُوَّةُ يَقِينٍ جَرِيحٍ الْمَدْكُورِ وَصِحَّةُ رَجَائِهِ لِأَنَّهُ اسْتَنْطَقَ الْمَوْلُودَ مَعَ كَوْنِ الْعَادَةِ أَنَّهُ لَا يَنْطِقُ وَلَوْلَا صِحَّةُ رَجَائِهِ بِنُطْقِهِ مَا اسْتَنْطَقَهُ .

٢٣- بيان فضل العلم ، فما وقع جريج رحمه الله فيما وقع فيه إلا بسبب تقديم النافلة على الفريضة والواجب؛ وتقديم الأهم وفقه الأولويات باب عظيم من أبواب العلم؛ وقد وجه النبي ﷺ معاذا إلى اليمن لدعوتهم وعلمه أن يبدأ بالأولى والأهم ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ، قَالَ: « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، .

٢٤- وجوب العزلة والهجر لأهل المعاصي والذنوب إلا إذا كانت المجالسة لدعوتهم وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وإلا فمجالستهم بل رؤيتهم عقوبة، فإن أم جريج دعت عليه بأن يعاقب برؤية وجوه المياميس وهن الزواني الفاجرات المجاهرات بذلك.